

مالك بن نبي والسّنن الكونيّة والاجتماعيّة للدين

Malik Ibin Nabi and the universal and social status of religion

بلحضري بلوفة^{1*}

كلية العلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، الجزائر.

تاريخ الارسال: 2017/04/28 تاريخ القبول: 2018/03/31 تاريخ النشر: 2019/01/16

الملخص:

في محاولة لتحقيق قراءة هادئة ومتبصرة حول المعين المعرفي المتدفق عن المفكر مالك بن نبي ومحاولة فتح نقاش للغوص في ردهات دراساته وتلايف أفكاره ذات العمق في كثير من قضايا الدين والفكر والاجتماع، سأحاول من خلال هذه الورقة بسط جملة من الأفكار والمفاهيم عن عمق ما كتبه المفكر حول محورية الدين كطاقة روحية. فالكون، البناء الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية، الكل بحاجة إلى هذه الطاقة.

كلمات مفتاحية: الدين؛ الفكرة الدينية الدين والكون؛ الحضارة؛ البناء الاجتماعي؛ عالم الأفكار؛ عالم الأشخاص؛ عالم المادة؛ العلاقات الاجتماعية؛ صناعة التاريخ؛ الأخلاق الدينية.

Abstract:

In an attempt to achieve a calm and insightful reading about the cognitive identifier flowing from the thinker Malik bin Nabi and try to open discussion and diving in the corridors of his studies and Characteristics ideas deep in many issues of religion and thought and meeting. I will try through this paper to extend a number of ideas and concepts about the depth of what the owner wrote Bin Nabi on the centrality of religion as spiritual energy. Falcon, social construction and social relations, all need this energy.

Keywords: Religion, religious idea, religion and cosmic, civilization, social construction, the world of ideas, world of peoples, the world of matter, social relationship, Making history, religious morality.

مقدمة:

لا شك أن التنقيب في ردهات دراسات المفكر مالك بن نبي وفتح نقاش حول ما ذراه من شحنات معرفية متدفقة ذات الرؤية المعمقة في كثير من قضايا الدين والفكر والاجتماع؛ حديث ذو شجون. وإن محاولة بسط جملة من الأفكار والمفاهيم في ذؤابة ما أرساه المفكر بغية تحليلها بعيدا عن المتاجر الأنطولوجية؛ ليعد مطلبها مهما بمكان. وإن القراءة الاستكشافية لعوالمه الفكرية؛ لتستدعي عقلا هادئا وقراءة متأنية حتى يتم التأسيس لإشكالية يتحقق من خلالها المغزى من التنقيب في تلايف حفريات، لاسيما فيما تعلق بمحورية الدين كطاقة روحية يتغذى منها النظام الكوني، البناء الاجتماعي على مستوى عالم الأفكار، الأشخاص وعالم المادة. أجل، إنها الحاجة الكونية والاجتماعية والحضارية إلى طاقة الدين.

* - بلحضري بلوفة. mr.wise21@yahoo.fr

ومن الإجحاف أن نستبق في الحديث عن زخم انجازات المفكر مالك بن نبي؛ دونما تقديم موضة عن سيرته الذاتية وأهم أعماله. لذلك كان لزما قبل البدء في سبر أغوار الموضوع، من أن نتقدم بنبذة عن حياته وعرض أهم ما صدحت به قريحته وما خطه قلمه، ومن ثم أمكننا الخوض في عملية التنقيب بحفريات الفكرية. كل ذلك في نطاق محاولة الإجابة عن أسئلة تتمفصل تحت تنوعات تراكيب إشكالية الضرورات الكونية والاجتماعية للدين، التي تنطلق من التساؤل الآتي: ما نظرة مالك بن نبي لطاقة الدين كأحد السنن الكونية والضرورات الاجتماعية؟

1-التعريف بمالك بن نبي:

هو أحد رؤاد النهضة الفكرية الإسلامية في القرن العشرين، ولد في 05 ذي القعدة 1323هـ الموافق لـ للفتح جانفي 1905 بقسنطينة، وهي إحدى المدن الواقعة شرق الدولة الجزائرية، من أسرة مسلمة محافظة. تلقى تعلمه الأول بالكتاتيب ثم المدرسة الابتدائية الفرنسية، وبعد إنهائه لدراسه الثانوية؛ انتقل إلى باريس حيث تخرج عام 1935 مهندسا كهربائيا.

نشأ مالك بن نبي كما هو دأب العباقرة على حب الاطلاع وشغف تحليل الأحداث لاسيما تلك التي كانت تحيط به وبمجتمعه. وقد حوّلت له ثقافته المنهجية قدرة على تشخيص مشكلة العالم المتخلف باعتبارها قضية حضارة أولا وقبل كل شيء، فصاغ كتبه جميعها تحت عنوان – مشكلات الحضارة -. ومن بين أبرز ما كتبه مالك بن نبي، ما صدر عنه باللغة الفرنسية بباريس تحت مسمى: الظاهرة القرآنية 1946، شروط النهضة 1948، لبيك حج الفقراء، وجهة العالم الإسلامي 1954، الفكرة الأفريقية الآسيوية 1956، وقد طبع له هذا الأخير بمصر من طرف وزارة الإعلام حين لجأ إلى القاهرة. هذا وقد مكنته إقامته بالقاهرة من ترجمة أعماله وتدوين مؤلفات أخرى باللغة العربية.

انتقل مالك بن نبي عام 1963 إلى الجزائر حيث عين مديرا عاما للتعليم العالي، ليستقيل في سنة 1967 من منصبه ويتفرغ للعمل الفكري والنشاطات والندوات الفكرية. ومن المؤلفات التي صدرت عنه بالجزائر: النجدة...الشعب الجزائري يباد عام 1957، مشكلة الثقافة عام 1958، فكرة كومونولث إسلامي عام 1958، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة عام 1959. إضافة إلى إصدار آخر تحت عنوان: حديث في البناء الجديد عام 1960، عقبه المؤلف الموسوم بتأملات عام 1961، ومؤلف آخر عام 1962 تحت عنوان: في مهبط المعركة، ثم آفاق جزائرية عام 1964، تلاه مدون إنتاج المستشرقين عام 1968، الإسلام والديمقراطية عام 1968، ثم يوميات شاهد للقرن، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي عام 1970، بين الرشاد والتهيه إلى جانب مدون: المسلم في عالم الاقتصاد عام 1972. توفي رحمه الله بالجزائر في 04 شوال 1393 الموافق لـ 31 أكتوبر 1973.

يعد المفكر بن نبي أحد أبرز المفكرين الجزائريين المعاصرين الذين نهّوا إلى ضرورة العناية بمشكلات الحضارة في غمرة أبحاثه في حقول عدة؛ كعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ، هذا الأخير الذي لفت انتباهه وعكف على تسخير كمامة زاخرة لتحليلاته.

هذا وقد سعى المفكر إلى إرساء فكر إسلامي في دراسته للمشكلات الحضارية موضوعا ومنهجيا، تعمقا وأبعادا، وعكف على تأسيس محاور كبرى لآليات الإصلاح التي يستوجبها الوضع بالأمة العربية والإسلامية والدول النامية، وهو ما دفع بعديد المفكرين ليتخذوا من أعماله وجهة لأفكارهم وأطروحاتهم، بوصفها أعمالا فذة من جهة، وبوصفها الجسر الذي تمتد حباله إلى منطلقات فكر العلامة ابن خلدون.

2- السنن الكونية والاجتماعية للدين:

إن المتأمل لتحليلات المفكر مالك بن نبي حول مسألة الطاقة الروحية للدين، يتبين له مدى عمق التصور الذي أضفاه عن الفكرة الدينية وأبعادها التي تجاوزت في عمقها ما ذهب إليه كارل ماركس والمدرسة المادية التاريخية، وأعمق مما ذهب إليه توينبي في منظور التحدي والاستجابة. إن نظرة مالك بن نبي للممارسة الدينية أعمق من أن يتخذ الإنسان لنفسه ركنا أو فضاء مكانيا أو زمنيا معلوما لممارسات طقوسه العباداتية، كما لا يمكن أن يكون الدين مجرد نسق من الأفكار الغيبية أو تشريعات سماويات بما تحمله من أوامر ونواهي، بل هنالك بالمقابل دينا وثنيا ابتدعه الإنسان على مر الأزمنة كصمام للأمان يدرأ عنه التوجس والوجل، ويستأنس إليه كمدد تتحقق فيه حاجته إلى الملاذ الأمن الذي يُشعره بالاستقرار.

ومهما ارتبط الدين بالتشريع السماوي أو بالوثنية المبتدعة، فإنه وجه من أوجه القداسة التي تكتنف جوهرها الأسرار. أما الفكرة الدينية فإنها تقدم معبودًا غيبيا ووعداً أعلى يهب لحياة الإنسان معنى لوجوده ويشعره بالاطمئنان، فلم تعد المشكلة كما يقول مالك بن نبي - وإن خصها بالحديث عن المجتمع المسلم - "في أن (نبرهن) للمسلم عن وجود الله، بقدر ما هي مشكلة مرتبطة في كيفية أن نملا به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة"¹.

إن حاجة الكون والإنسان للدين عند مالك بن نبي؛ مثلها كمثل حاجة الأرض للجاذبية حتى تستقر، كذلك الدين، فإنه يمثل قانونا إلهيا وظاهرة كونية "تحكم فكر الإنسان وتحكم حضارته، كما تحكم الجاذبية المادة، وتتحكم في تطورها"². فبذلك يكون استقرار الإنسان والكون بما وعى قد تقرر بجاذبية الدين كما تقرر ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ

¹ بن نبي، مالك، *وجهة العالم الإسلامي*، تر، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سورية، 2002م، ص: 54.

² بن نبي، مالك، *الظاهرة القرآنية*، تر، عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 2000 م، ص: 300.

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) ¹. فلا يمكن للنظام الكوني بأي حال من الأحوال أن يستغني عن حاجته إلى طاقة الدين، كما أن الإنسان به يحيى ودونه فهو ميت. والله ذر القائل ²:

إِذَا الْإِيمَانُ ضَاعَ فَلَا أَمَانٌ وَلَا دُنْيَا لِمَنْ لَمْ يُحْيِ دِينًا
وَمَنْ رَضِيَ الْحَيَاةَ بِغَيْرِ دِينٍ فَقَدْ جَعَلَ الْفَنَاءَ لَهَا قَرِينًا

ولا أقل بأن يكون الدين قانونا للبشرية، فإنه باعث الحياة في الأرض، وأن وروح الإنسان لن تنبض ولن تحيى إلا بطاقة الدين، أما روح الإنسان الحية؛ فهي التي تمنح معنى للوجود ووجود الإنسان، ليس ككائن يحيى في معزل عن بقية بني جنسه، وإنما ككيان اجتماعي في حاجة ماسة إلى بناء اجتماعي يستشرف تحقيق مطامح وغايات ويستشرف التقدم والإقلاع نحو الحضارة.

إن البناء الاجتماعي كما يقول مالك بن نبي، لا يقوى على البقاء وعلى تحقيق التقدم والإقلاع نحو الحضارة "بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب، لأن الروح، والروح وحده هو الذي يتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فقد الروح سقطت الحضارة وانحطت، لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوي بتأثير جاذبية الأرض" ³.

وإذا كان الدين من خلال المنظور السالف الذكر قد اتخذ بعدا روحيا، فإن الكتابات التاريخية منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا، كانت سجلا وشاهدا أميناً يُظهر الدين على أنه أحد الثوابت الوجودية من جهة، وأحد الثوابت الشخصية للإنسانية ومنجزاتها من جهة أخرى. فالحضارات وهي تتأسس وتتطور وتأفل ثم تتعاقب عبر مسار التاريخ، قد اتخذت لها معالم مادية للاستدلال على الحضور، ويظهر هذا الاستدلال في الفضاءات، الرموز والأمكنة وشتى أشكال المعالم المادية. وبذلك فلن تكون المعالم المادية إلا تعبيراً تاريخياً واجتماعياً محمل بشحنات دينية تمنح صورة عن تجارب متكررة خلال أحقاب زمنية متردفة، وإذا "أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان، في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي، وجد سطورا من الفكرة الدينية" ⁴. وهو ما يشهد عليه علم الآثار بحسب الدراسات الأيركولوجية للأطلال والرواسب. فلقد "أظهر علم الآثار دائماً-من بين الأطلال التي كشف عنها- بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية، أيًا كانت تلك الشعائر" ⁵، إنها القانون الدافع للحضارة الإسلامية، والقانون الدافع للحضارة الغربية. فالحضارة إذا؛ "تشكل في ارتباطها الأساس

¹ سورة الأنفال، الآية: 24.

² الأبيات للشاعر محمد إقبال.

³ بن نبي، مالك، *وحمة العالم الإسلامي*، سبق ذكره، ص: 31.

⁴ بن نبي، مالك، *الظاهرة القرآنية*، سبق ذكره، ص: 69.

⁵ نفسه، ص: 69.

بالمعتقد على النحو الذي نجده في تعبير الحضارة الإسلامية أو المسيحية أو البوذية أو البرهمية¹، وكل منها ذات مبعث ديني إلى بقية الحضارات التي سجلها تاريخ الإنسانية. حقا، إن "الفكرة الدينية تتدخل إما بطريقة مباشرة، وإما بواسطة بديلاتها"².

تسوقنا أتون الأحاديث عن الدين والحضارة، إلى التأمل برهة فيما ذهب إليه توينبي حينما أكد على أن الحضارة الغربية؛ إنما ترجع في إحدى مركباتها إلى الديانة المسيحية. كما تدعونا أسطر التاريخ للوقوف مرة أخرى وقفة تدبر إلى ما ذهب إليه مالك بن نبي وهو يدعوا للالتفات إلى مختبر التاريخ كشاهد على مدى قوة الفكرة الدينية في كل حضارة، ولا يسعنا في هذا الصدد إلا الاستئناس بقوله: "هكذا يجب أن نلتفت نحن إلى مختبر التاريخ ليدلنا على ... تأثير الدين كعامل مركب للحضارة، فمن درس تاريخ الحضارة الغربية... يرى أثر الفكرة المسيحية في تركيبها"³ وفضلها على تشكل-الأنا الأوروبي-. وهي إشارة تجعلنا ندقق النظر مرة أخرى للخلوص إلى نتيجة تفضي إلى أن المعالم المادية لن تكتمل فعلا إلا بالمعنى الذي أوجدت من أجله.

وإذا كانت الحضارات قد انبعثت بالقوة الفاعلة للدين⁴، فإن الدين الذي رافقه مالك بن نبي في تحليلاته لن يكون إلا "في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجا، يصبو في مضمونه إلى توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام"⁵. أما المعمار والفضاء والرمز وكل أشكال التفوق المادية، فإنها مهما عبّرت عن القوة والتفوق لأي أمة قد سجلت حضورها في مشهد التاريخ، فإن بنائها هارٍ إذا لم يقيم على أساس معايير إنسانية، إنها معايير التقوى بالتعبير القرآني⁶، ولا أدلّ في ذلك من قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونُ

¹ عزى، عبد الرحمان، *حفريات في الفكر الإعلامي القيمي*، مالك بن نبي-النورسي-الورثيلاني-من تسو، الدار المتوسطة للنشر، تونس، ط:1، 1432 هـ 2011 م، ص: 12.

² بن نبي، مالك، *القضايا الكبرى*، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1430 هـ 2000 م، ص: 60.

³ http://library.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=7&ChapterId=7&BookId=273&CatId=201&startno=0

عمر عبيد، حسنة، *الدين في مفهوم ابن نبي رحمه الله*، المكتبة الإسلامية. تاريخ التصفح (14 جوان 2016، الساعة 09:37) ⁴ أنظر كتاب: شروط النهضة.

⁵ يميز مالك بن نبي بين الإسلام والحضارة التي تتولد بدورها وفق ذلك، فالحضارة تمثل عنده ما يمكن اعتباره مستوى ثاني من الممارسة الحضارية، وفي هذا الشأن يقول: الإسلام ليس شيئا بسيطا حتى نكونه نحن بأيدنا كما هي الحضارة من صنع البشر. الإسلام صنعه الله محفوظا في اللوح المحفوظ، بينما الحضارة شيء يتكون ونمو ويعيش ويمتد ويزول ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾. بينما الإسلام لا تتأوله الأيام، لنا فالإسلام شيء والحضارة شيء آخر. الإسلام أبدا لا يتغير فيه حرف واحد ولو تغيرت البشرية كلها. أما الحضارات فتعترتها أمواج التاريخ، تنشأ، تتزعزع، تزهر ثم يأتينا الأفول...فلو كان الإسلام هو الحضارة-والإسلام والحمد لله ما زال باقيا في قلوبنا وضائرنا-لما فتحنا مجالا للحديث عن الحضارة، ولما خصصنا للموضوع دراسات أربعين سنة، ولما تكلمنا على هذا الموضوع، لأنه يصبح من فضول الكلام. عن كتاب: عزى، عبد الرحمان، *حفريات في الفكر الإعلامي القيمي*، سبق ذكره، ص: 15.

⁶ الشوفي، نزيه، *الثقافة الهدامة والإعلام الأسود*، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص: 124.

يَكُلُّ رِيعَ آيَةٍ تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) ¹.

إن القوة المادية المجردة من القيم الروحية دافع للتسلط والطغيان والظلم، أولم يكفنا قول الحق عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا طَغَى (6) أَن رَّاهُ اسْتَعْصَى (7)﴾ ²، أولم تكفنا دلالات الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27)﴾ ³.

وتستوقفنا مقاصد حكمة لما قصه المسعودي في أخبار الفرس عن المؤبدان صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام في إنكار ما كان عليه من الظلم في قصة لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها، فقال له: إن بوما ذكرنا يروم نكاح بوم أنثى؛ وإنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام، فقبل شرطها وقال لها: إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهل مرام. فتنبه الملك من غفلته وخلا بالمؤبدان وسأله عن مراده، فقال له: أيها الملك إن المؤلك لا يتم عزه إلا بالشرعية والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه. ولا قوام للشرعية إلا بالمؤلك، ولا عز للمؤلك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة نصبه الرب وجعل له قيما وهو المؤلك. وأنت أيها الملك عهدت إلى الضياع فانتزعها من أربابها وعمارها ... ومن تؤخذ منهم الأموال وأقطعتهم الحاشية والخدم.. فتركوا العمارة والنظر في العواقب... ووقع الحيف على من بقي.. فانجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم... فقللت العمارة وخربت الضياع وقللت الأموال وهلك الجنود والرعية ⁴. هي حكمة تنجلي مقاصدها في فساد العمران وخرابه، والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه ⁵. فالقوة المادية "سبب البطش والتجبر إذا لم تكن مقرونة بقيم ذات رصيد ديني" ⁶.

ومن وجهة نظر أخرى؛ فإن المسألة الدينية في الوجود عند بني تنضوي تحت غايتين أساسيتين: أولاهما: ما بناه على ضوء الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)﴾ ⁷. حيث أن الغاية تروم إلى ربط الأرض بالسماء، أي ربط أهداف السماء بضرورات الأرض، وبمعنى آخر، فإنه يتوجب على الإنسان إحياء الأرض وإحياء روحه. كيف ذلك؟، وذلك من خلال تحقيق الدين على وجه الأرض، كوجه

¹ سورة الشعراء، الآيات: 128-130.

² سورة العلق، الآيتان: 6-7.

³ سورة الشورى، الآية: 27.

⁴ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، ضبط وشرح وتقديم، محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1425 هـ.

2005 م، ص: 269.

⁵ نفسه، ص: 270.

⁶ الشوفي، نزيه، سبق ذكره، ص: 124.

⁷ سورة الذاريات، الآية: 56.

من أوجه إمداد النَّفْس بالنَّفْس المتجدد بالعكوف على إقام العبادات ممارسة وحضورا بكل الجوارح. فالصلوات الخمس الموقوتة، التي تتجدد مواقيتها في اليوم الواحد كما في شريعة المسلمين، هي فرض موقوت، ولا أغرب من أن يجلي العلماء أسرارها؛ فيفيضون إلى البرهنة على أن الحركات التي يقوم بها المسلم أثناء الصلاة تنتقل به من مستوى الحضور الفيزيائي إلى المستوى الأثيري ومن ثم النوراني صعودا نحو الإلهي. وبصرف النظر على أن الصلوات تجديد للعهد مع الله عز وجل في فترات معلومة، فإنها طاقة إيجابية¹ تتبادل فيها الطاقة الداخلية لجسم الإنسان مع طاقة الكون الخارجية. وأنها صحة للعقل والجسم والروح، كذلكم الزكاة والصوم والحج والنوافل، فلها أسرارها الإلهية والكونية والفيزيائية والأثيرية والنورانية ما ظل المسلم في ارتباط واتصال دائم ومتجدد بالسماء، بل برب السماء والأرض وما بينهما؛ ما ضمن وما أقام.

أخراهما: أن الدين شبكة علاقات روحية، أي ما تعلق بكل أحكام وسنن المعاملات بين بني البشر والخلائق الموجودة على وجه البسيطة. أوليس "الدين المعاملة" كما قال صلى الله عليه وسلم. فالإنسان مدعو لإظهار قوانين الدين ونواميسه مع موجد الوجود، وفي حركاته وسكناته، والتبصر في أدبه مع بني جنسه. ثم ليرفع بعد بصره إلى ما بعد حياته الأرضية ليتفكر في أبعاد السماء وسر الوجود وقدرة مبدع الوجود.

وفي خضم الجزئيات التي تحدثنا عنها أنفا، بدءا من عرض الفكرة الدينية كطاقة روحية تحتاج إليها النفس البشرية كما هو الكون والحضارات، إلى الحديث عن البعد العباداتي والمعاملاتي. يمكن أن يستطيل الكلام أيضا إلى تبيان محورية الدين وأبعاده الاجتماعية والتاريخية. وفي ذلك يرى مالك بن نبي؛ أن الفكرة الدينية ذات بعد وظيفي في البناء الثقافي للإنسان وبناء إنسانيته، وهو بذلك يدعو إلى ضرورة ترسيخ فكرة الدين في النفوس كونها ملزمة من جهة، ثم التأكيد على محوريته في السيرة البشرية نظرا لأهميتها في التحولات والسيروية الإنسانية والحضارية على مر التاريخ من جهة أخرى.

وفي خضم تحليل مالك بن نبي للعلاقات الاجتماعية، فإن الجماعة هي بمثابة الجسد الواحد وصمام أمان للفرد، يكفينا في ذلك النص الصريح الذي يبين حال المجتمع الإسلامي إبان حياة رسول الله عليه وسلم في قوله عز وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾²، وقوله تعالى في موطن آخر: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾³، وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

¹ توصل العلماء من غير المسلمين إلى سر القبلة وسر أداء الصلوات في مواقيتها الخمس وبحركاتها المتناهية، فالقبلة التي هي مركز الطاقة الإيجابية والمواقيت والحركات لها علاقة عجيبة مع نواميس الكون وحركته. وبعد أن يؤدي المسلم صلواته كاملة نحو القبلة بتركيز عقلي وقلبي فإنه يستريد من تدفق الطاقة الإيجابية مجسمه.

² سورة الفتح، الآية: 29.

³ سورة التوبة، الآية: 71.

اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا¹». ولقول رسول الله محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"². إذا الفرد والمجتمع كيان مشترك ومتشابه العلاقات يؤول في كليته إلى الحتمية المشتركة، والمجتمع بهذا المفهوم؛ ليس مجرد زمرٍ تربطهم مصالح مادية، إنما هو تنظيم يحمل في تلافيفه قيما ذات طابع إنساني، ولا شك أن هذا التنظيم هو حاجة ماسة إلى معين أدبيات المرجعية الدينية. كذلك هي دلالات رسالات الشرائع السماوية التي تحاول بما لديها من وسائل إنسانية خالصة، لسد الفراغ الاجتماعي³. يضاف إلى ذلك، تلك الغاية التي يحملها التنظيم لإذكاء مبررات وجوده وتجديد منابع استمراريته، حتى يتمكن في الأخير من سد فراغه الاجتماعي وصنع الحضارة بنفسه.

إن المجتمع في نظر مالك بن نبي؛ كيان دائم الحركة والتغير، هاتان المنظومتان اللتان أطلق عليها المفكر اسم "صناعة التاريخ"، منظومتان لازمتان لبلوغ حالة من الحضور الحضاري، وإلا سيكون المجتمع قد اختار مصيره بنفسه في حال رفض هذه الحركة؛ نحو الانحدار والتخلف والانهيار. ولعل المجتمع وهو في حالة البحث لصناعة تاريخه، بحاجة إلى عناصر ثلاثة وهي: أ- الإنسان: وهو وحدة مكونة للمجتمع، ويعبر عنه مالك بن نبي بعالم الأشخاص.

ب- الأفكار: إنها الثروة الحقيقية للمجتمع بما تحمله من صفات القداسة، ذلك أن الإنسان قد كرم بالعقل وخُيّر به على سائر المخلوقات. إنه الدليل المستقى من القرآن الكريم، يقول جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (70)⁴.

ج- المادة: ويطلق عليها المفكر مالك بن نبي اسم عالم الأشياء. إنها الوسيلة التي تطوعها الفكرة لتحقيق غايات الإنسان.

إن عالم – الأشخاص، الفكر، المادة –، كلها بحاجة إلى الصلة فيما بينها، لتحقيق "شبكة العلاقات". أما الأفكار فإنها دافع وباعث الإنسان على الحركة بغية التجسيد، أما الأشخاص فإنهم "يحسنون استيعاب الأفكار وفهم واقعهم فيستطيعون تحديد الأهداف بما يتناسب مع الظروف ومع القدرات البشرية والمادية المتوفرة"⁵. لذلك فإن عالم الأفكار لا يمكن تجسيده وهو في معزل عن شبكة

¹ سورة آل عمران، الآية: 102-103

² أخرجه البخاري ومسلم عن الثعالب بن بشر.

³ بن نبي، مالك، ميلاد مجتمع، تر، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، ط: 3، 1406 هـ 1986 م، ص: 56.

⁴ سورة الإسراء، الآية: 70.

⁵ السحمراني، أسعد، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1984، ص: 145.

العلاقات، والعكس صحيح. وبمعنى آخر، فإن ثروة الأفكار بحاجة إلى ديناميكية الإنسان؛ وأن الإنسان بحاجة إلى شحنة تدفعه لتقبل تغيير نفسه نحو ما يسمو بنفسه ويسمو بالأمة ويحقق لها التقدم والاستقرار، وإلا لن "يستقر أمرها إذا لم يتغير الإنسان نفسه"¹. إذا، إن شبكة العلاقات هي التي تمنح للفكرة تنظيماً وتجعلها سبيلاً لغاية بعينها. كما أن فاعليتها تتغذى بروح الإيمان الذي يظهر الأثر البالغ للدين في النفس لصناعة التاريخ.

وإذا كان التاريخ قد اثبت انهيار وأفول معالم تاريخية مادية بفعل الحروب مثلاً أو بحلول كوارث طبيعية كالزلازل والفيضانات أو لأسباب مرتبطة بإهمال لجوانب روحية، فإن محاولة الإنسان إنقاذ تاريخه وإصلاح واقعه والتطلع إلى الأفق لن يكون أمراً مستحيلاً لإعادة الإعمار مجدداً وإعادة ترميم علاقاته الاجتماعية، ومخرج ذلك وعي المجتمع لواقعه الديني -ولو أن المسألة بحاجة إلى تحليل دقيق وأوسع لا يتسع المجال لتحليل أكنانه إلا في موضوع أو مؤلف خاص.

يشير مالك بن نبي إلى أنه لا يمكن أن نتصور مجتمعا أو أمة متجانسة بالرغم مما تمتلكه من أفكار وثروة مادية في ظل شبكة علاقاتها الاجتماعية المترتبة. مما يدفعنا إلى القول؛ أن شبكة العلاقات قد تبدي لنا نوعية حراك المجتمع وإظهار عافيته من مرضه، فحينما يعتري خيوط الشبكة الاجتماعية ارتخاء فإن المجتمع يغدو عاجزا عن القيام بالنشاط المشترك بصورة فعالة، وهي أمانة على أن المجتمع قد عاد مريضا وغدى سهل المنال للانحدار والانهيار. أما تفكك الشبكة نهائيا، فذلك إيذان بهلاك المجتمع في كليته. هذا ما شاء أن يقرره مالك بن نبي في لحظة من لحظات تأملاته. فإذا "ما تطور مجتمع ما على أية صورة، فإن هذا التطور مسجل كما وكيفاً في شبكة علاقاته.. وعندما يرتخي التوتر في خيوط الشبكة، فذلك أمانة على أن المجتمع مريض، وأنه ماض إلى نهايته"²، وكلما كانت عرى شبكة العلاقات الاجتماعية أوثق، إلا وكان العمل فعالاً مؤثراً وظهرت نتائجه.

حقيقة؛ إن شبكة العلاقات الاجتماعية الملهلة التي تميز بها المجتمع الإسلامي في الشرق، والمجتمع الإسلامي في نهاية العصر العباسي، وعصر الموحدين -الذي أطلق عليه اسم إنسان ما بعد الحضارة-، لم تعد شبكة علائقية بما تقتضيه نوااميس ومشارب المرجعية الإسلامية، بل أمسى المجتمع في نسيجه وشبكته وواقعه مجرد "تجمعات لا قوة لها ولا هدف"³. إنه الحال نفسه الذي كشفت فيه عورة مجتمعاتنا في خضم علاقاتنا ببعضنا في حاضرتنا، وجعلتنا نَحْنُ إلى العهود الخالية ونعيش على أطلال المآثر المدفونة في ردهات التاريخ، والتماهي بالضمير (نحن) الذي بقي حيا على ألسنتنا، "فتحن سليلو

¹ بن نبي، مالك، **بين الرشاد والتهيه**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط: 2، 1988 م، ص: 51.

² بن نبي، مالك، **ميلاد مجتمع**، تر، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1989، ص: 37.

³ خالد السعد، نورة، **التغير الاجتماعي في فكر ابن نبي، دراسة في بناء النظرية الاجتماعية**، البار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، 1996، ص: 134.

أمجاد ثقافية كبرى، نحن مركز الإشعاع الثقافي الإنساني في العصور الوسطى، نحن الذين نقلنا الحضارة إلى أوروبا، ونحن أساتذتها... وهكذا وهكذا"¹، وهي مقولات قال عنها مالك بن نبي - وإن كان قد وظفها في إطار آخر- "قد تجاوزها الزمن وقلب التاريخ صفحاتها"²، أو لعلها حتمية تولدت عن شعور العربي "بالاعتداد الثقافي الكامل وبالتالي إلى الاعتقاد أن العظمة الثقافية التاريخية تمد استطلاعاتها بشكل طبيعي إلى الحاضر وإلى المستقبل. ومقابل ذلك يجد العربي المعاصر نفسه في معضلة. فلكي يؤكد هويته وعظمتها الثقافية عليه أن يرتد إلى الماضي ويحيي روائعه وقيمه ويلبس لبوسه لأن الحاضر لم يسفعه بعد".

إذا هي إحدى المنطلقات التي يذهب إليها مالك بن نبي في قراءته "المتبصرة لحال الأمة...والذي يشهد حالة من الركود التي شخصها بدقة إلى ما يمكن اعتباره تفكك تنابعي...في سياق الانحدار الحضاري"³ الناتج عن فساد شبكة العلاقات الاجتماعية. فحينما يغدو الأنا لدى الفرد متضخما ويمارس الفرد استقلاليتته مضفيا عليها شرعية وهو في كنف الجسد الاجتماعي، فلا محالة بأن ذلك سيؤدي إلى "تحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية"⁴، وحينئذ سينفصل المجتمع عن ذاته وسيفقد الأفراد روح الانتماء إلى الجماعة، إلى أن يصبح الائتلاف الجمعي أمرا صعبا، "فالعلاقة الفاسدة في" الفلسفة الأخلاقية"⁵ أو عالم الأشخاص؛ لها نتائجها السريعة في عالم الأفكار وفي عالم الأشياء، وإن السقوط الاجتماعي الذي يصيب عالم الأشخاص يمتد لا محالة إلى الأفكار وإلى الأشياء"⁶.

ويستمر مالك بن نبي في تأملاته قائلا: "والتاريخ في أي مستوى من الحضارة يتم إنجازه، إنما يمثل النشاط المشترك للأشياء، والأشخاص، والأفكار المتاحة في ذلك الحين بالذات"⁷.

يستطيل الحديث حول مسألة تحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردانية والسقوط الاجتماعي، إلى الحديث عن فكرة الأخلاق الدينية التوحيدية واللا دينية. وعليه، فإن الأخلاق الدينية التوحيدية ترمي في أحد مقاصدها الحفاظ على حق المنفعة الفردية مع مراعاة المنفعة الجماعية. والمبتغى من كل ذلك، أن ينشد الإنسان ثواب الله قبل تحصيل الفائدة الفردية، فمن أجل هذا الثواب "صاغت التوراة الميثاق الخلقي الأول للإنسانية في وصاياها العشر، وساق الإنجيل توجّهاته في عظة المسيح على الجبل. ولكن الأمر في كلا الكتابين، أنه ذا مبدأ أخلاقي...ويقول الأستاذ (أندريه لودن): "إن القيمة الدينية للفرد

¹ الخطيب، حسام، الثقافة والتربية في خط المواجهة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983، ص: 13.

² بن نبي، مالك، من أجل التغيير، دار الفكر، دمشق، سورية. 1426 هـ 2005، ص: 6.

³ عزي، عبد الرحمن، سبق ذكره، ص: 11.

⁴ بن نبي، مالك، ميلاد مجتمع، سبق ذكره، ص: 43.

⁵ بن نبي، مالك، مشكلة الثقافة، تر، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط: 4، 1984، ص: 65.

⁶ بن نبي، مالك، ميلاد مجتمع، سبق ذكره، ص: 45.

⁷ بن نبي، مالك، القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط: 1، 1991، ص: 98.

لم تظهر في الديانة اليهودية لا على عهد (حزقيال Exachiel النبي)، فحتى ذلك العهد كان الواجب ونتائجه الخلقية يقع على عاتق الأمة) ... حتى إذا القرآن وجدناه يقيم بناءه الخلقي على أساس القيمة الخلقية للفرد،..¹ فإنه " يلفتنا إلى قصته في هذه الدنيا حين يدعونا إلى تأمل العقاب الدنيوي في عواقب الأثم البائدة "²، ويستدل بقوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (11). بينما الأخلاق اللادينية، فإن لها جانباً أحادي القطبية يدعو إلى تقييم أعمال الإنسان على أساس المنفعة الشخصية التي تترتب عنها مآلات وعواقب وخيمة على المجتمع.

وفي معرض الحديث عن خريطة الأديان في ذؤابة العصر الحديث مثلما يشير مالك بن نبي، فإن " البوذية قد شطب عليها قلم السيد (ماوتسي تونغ) فمحاهها من الوجود. وأما المجوسية فقد محاهها عمز يوم القادسية. وأما البرهمية فقد محتها ظروفها...إما بوصفها ديناً، فقد انتهت وانتهى دورها...لقد فشلت لأنها لم تستطع حل المشكلات الاجتماعية، وهذا يعني وكأنما قد قدمت استقالتها من التاريخ. أما المسيحية فقد حدث لها في الفترة الأخيرة تطورات غريبة عبر عنها ذلك المجمع المسكوني الأخير"³. ويسترسل في إحدى مقولاته: " وقبله مجمع الفاتكان الثاني، فالمسوغات المسيحية بدأت فعلاً تفقد تأثيرها في الحياة المسيحية...حدث أن بدأت دور التعليم العالي المسيحي في العالم، خاصة في أمريكا اللاتينية تغلق أبوابها الواحدة تلو الأخرى، ثم تبعها الأديرة. ذلك أن فتيات المجتمع الإيطالي قد انصرفن لمجالات أخرى من النشاط الأخلاقي"⁴.

يلفت مالك بن نبي أنظارنا إلى وجود لونا آخران على الخريطة الإيديولوجية وخريطة الأديان، وهما: لون الدين الإسلامي ولون الشيوعية. فاللون " الإسلامي اليوم يغطي مساحة من الدنيا تعادل نصفها تقريباً...فها نحن أولاء في مدى نصف قرن مثلاً نرى أن العدد قد تصاعد إلى ما يقرب الآن إلى المليار"⁵، وهذا السبب كان كفيلاً لأن تخرج وتظهر الملل أضغائها على شاكلة الملة اليهودية وعلى نحوها الملل المعادية للإسلام لتتداعى على الأمة العربية الإسلامية وزعزعة منظومتها الأمنية، السياسية والاجتماعية والثقافية ونشر الفوضى والشيع وهلم جرا من الحركات والطوائف. إلى جانب العمل على طمس صورة الإسلام وإعدامه إن اقتضى الأمر.

¹ بن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، سبق ذكره، ص.ص: 207. 208.

² نفسه، ص.ص: 207. 208.

³ بن نبي، مالك، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر بالتعاون مع الملكية للإعلام والنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 1، 1412هـ 1991م، ص.ص: 29. 30.

⁴ نفسه، ص.ص: 31. 32.

⁵ نفسه، ص.ص: 33. 34.

إن ما تعيشه الأمة الإسلامية من أحداث، كأنما يبرئ للقاعدة التاريخية الاجتماعية ويقود مصير الإنسانية نحو قطب يتحقق فيه الإعجاز القرآني ويتحقق فيه معنى الآية الكريمة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33)﴾¹، ويحقق أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾². أما الشيوعية فقد تناولها مالك بن نبي في كتاباته على أساس أنها عقيدة ودين لا بوصفها مذهباً سياسياً أو اقتصادياً، فقد استطاعت أن تقدم مسوغاتها على حساب المسوغات التقليدية البارزة المفقودة، أي على حساب المسيحية.

لقد استطاع مالك بن نبي من خلال نماذج كثيرة من مؤلفاته مناقشة ظاهرة الاحتفاء بالدين عموماً وبالدين الإسلامي بوجه خاص، نتطرق بشكل مقتضب إلى ما عالجه على سبيل المثال في كتاب "الظاهرة القرآنية" الذي حاول من خلاله تقديم رؤية تختص بزوايا مستقلة في النظر لبعض المفاهيم الدينية، لاسيما وهو يحاول إعادة توجيه بوصلة المجتمع الإسلامي لتصحيح رؤيته للدين من أجل ممارسة فعالية للدين. إلى جانب معالجه لمشكلات المجتمعات العربية والإسلامية والدول النامية على مستوى القارة الأفريقية وتخوم المعمورة، ودراسة العوامل الإيجابية والسلبية المؤثرة فيها، محاولاً أيضاً رسم معالم نهضتها مثلما يتجلى في أعماله "فكرة كومونولث إسلامي" و"الفكرة الأفريقية الآسيوية"، الذي حاول من خلالهما الإشارة إلى أهمية وحتمية العصبية بالمصطلح الخلدوني، أي ضرورة إرساء التحالف بينها في إطار شبكة متينة النسيج لتحقيق التحرر الفكري والمادي وإعلان النهضة، وإلا صارت مثل "الذرة التي ألقت بنفسها بين قوى هائلة تتصارع في العالم... وأن الذرة إن لم تحطم، فهي معجزة"³.

أما في كتاب "مشكلات الحضارة" وما يتم فصل تحت هذا العنوان من أفكار شجنت فكرية، فقد أسهب من خلاله في ذكر جوانب من مشكلات حاضره ومجتمعه وبلده التي ارتبطت بماضيه أيضاً. يماثله في ذلك مؤلفه "أفاق جزائرية" ومؤلفه "الصراع الفكري في الدول المستعمرة" ومؤلفه "القضايا الكبرى". أما كتابه "بين الرشاد والتهيه"، و"مشكلة الثقافة" و"حديث في البناء الجديد" و"ميلاد مجتمع"، فإنها تحمل في تلافيفها نماذج صنوان وغير صنوان من المعالجات، قاسمها المشترك؛ هو واقع المجتمعات الإسلامية والدول النامية، لسان حالها الذي يدلي بوجود مشكلة فعلية التي تحتاج إلى "عمائم الإصلاح"، تدلنا على منهاج آخر يقوم على عقيدة صحيحة، ورجوع إلى السلف الصالح وتغيير ما بالنفس من آثار

¹ سورة التوبة، الآية: 32- 33.

² سورة المؤمنون، الآية: 36.

³ بن نبي، مالك، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، الملكية للإعلام والنشر والتوزيع، الحراش، الجزائر، ط: 3، 1988، ص: 95.

الانحطاط¹. فالمجتمعات الإسلامية مدعوة اليوم للبناء والحضور والمساهمة، "وبقدر ما يزداد ارتفاع الغاية، وبعد مسافتها، بقدر ما يتعين على الإنسان السائر صوب هذه الغاية: أن يمتدّ طبقاً لمقياس مُهَمَّاته"².

الخاتمة: إذا كان لا بد من قول نختم به هذه الورقة، فلا مناص من القول: أن الدراسات المقارنة التي أجريت على يد العديد من المفكرين المعاصرين حول الزخم المعرفي لمالك بن نبي، ومن ذلك دراسات زكي الميلاد، ودراسة فلة الأحمر حول الائتلاف والاختلاف بين فكر بن نبي والسيد قطب، لدليل على أن مالك بن نبي، يعد فعلاً أحد أساطين الفكر الإسلامي وأفلامه، وأحد أبرز مفكري النهضة الإسلامية في عصرنا الحديث.

إن ما استصحبه مالك بن نبي في مقارباته للمشكلات التي تخص الإنسان المسلم وغير المسلم من منظور الشريعة الإسلامية، ليعبر عن طاقة إبداعية تدرّ بعطائها منح طاقة متجددة تغذي آليات تطوير الفكر الإسلامي المعاصر التي تنقلنا من غمرة الخطاب النظري إلى الواقعية والعقلانية. كيف لا؟، وقد أشادوا واستلهم صناع القرار بتركيا وماليزيا من دراساته وأفكاره قصد تحقيق التنمية الاقتصادية ببلدانهم وتحقيق الاستقرار لشعوبهم.

وتذكرنا القراءة المتأنية لهذه الورقة، على حرص مالك بن نبي في عرضه لعالم - الفكر، الأشخاص والمادة -، أن الحضارة لن تتأتى بتضافر هذه العوالم، وأنها لن تتأتى إلا بطاقة الدين وفاعلية الإيمان. ليس فقط لكون الدين لازماً لها، وإنما لكونه حاجة تحيا بها قوانين الإنسان وعلومه وتتوطد به علاقاته الاجتماعية.

إن دعوة مالك بن نبي للعودة إلى المرجعية الدينية الإسلامية، إنما هي دعوة للاستفادة من تجارب تاريخ الأمم قاطبة، والاستفادة من روح الدين الذي حول الأعراب إلى رجال حضارة، وأبدل توحشهم بأنسا وأبدل خوفهم أمناً.

وإذا كانت الحضارة الغربية قد أبرزت إيمانها في نواحي عدة ضمن مسيرتها الحضارية الثقافية والسياسية وغيرها، فإن مالك بن نبي يرى ازدواجية في خطاب هذه الحضارة، يضاف إليه خطر خطاب المستشرقين على العقل المسلم. فالحضارة الغربية كانت تطمح دائماً إلى التآصيل لذاتها ومعتقداتها، وتعمل على تقرير دور المسلم في طرق ممارسة دينه على المستوى الفردي والجماعي، لم لا؛ على مستوى ممارسة شعائره- ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾³، بل وتسعى اليوم كما كان دائماً؛ إلى محاولة طمس صورة الإسلام فكرة واعتقاداً، وتأجيج دعاية فوبيا الإسلام، ومن ثم وإصدار قرار

¹ بن نبي، مالك، شروط النهضة، تر، عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، 1406هـ، 1986م، ص: 25.

² بن نبي، مالك، القضايا الكبرى، سبق ذكره، ص: 129.

³ سورة البقرة، الآية: 120.

التجريم على هذا المرعب المخيف، والجزبه في قفص الاتهام، انتظارا لتطبيق أحكام القرار المحسوم في أمره، وهو أن هذا العدو الذي اسمه "الإسلام" يجب أن يعدم. ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.